

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

المحاضرة السادسة: نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

تمهيد:

تتضمن النظريات السكانية مجموعة من الأفكار المترابطة التي تقوم على أساس الملاحظة والتجريب، تقدم من خلالها تفسيرات مختلفة للظواهر السكانية، استناداً إلى وجهات نظر متباينة بين المفكرين والعلماء، وفيما يلي سنتناول أهم النظريات.

(1) مفهوم النظرية:

تعرف النظرية بأنها مجموعة من الفرضيات، التجارب والحقائق التي يتم استخدامها لتحقيق الإدراك الذهني عبر تفسير الظواهر المختلفة، كما تستخدم لفهم العلاقات بين مسببات الأمور وتأثيراتها على المحيط، إذ تشكل النظريات أساساً للتفكير العلمي، الخاص بمحاولة شرح الأشياء المثبتة عبر عدد من المبادئ الأساسية.

ويجب أن تكون النظرية قابلة للتحقق والاختبار من خلال تجارب وأدلة إضافية، وإذا كانت النظرية قادرة على تفسير مجموعة واسعة من الظواهر بشكل متسق ومنطقي وتم التحقق من توقعاتها من خلال الأدلة فإنها تكون قوية ومقبولة في المجتمع العلمي، ومع ذلك فإن النظرية في العلوم ليست نهائية أو ثابتة بل قابلة للتعديل والتطوير، فقد يتم تعديل النظرية بناءً على الأدلة الجديدة أو الاكتشافات العلمية الأخرى التي تتطلب شرحاً أو تفسيراً جديداً، وهذا العمل المستمر للتحسين والتطوير يساهم في تقدم المعرفة العلمية وفهمنا للعالم من حولنا.

(2) نظرية مالتوس:

توماس روبرت مالتوس Thomas Robert Malthus (1766-1834) هو رجل دين وباحث اقتصادي إنجليزي يعد من أهم المنظرين والمهتمين بالمسألة السكانية، حيث تعتبر نظريته علامة مميزة في تاريخ الدراسات الديمغرافية، لاستخدامه الأسلوب العلمي والإحصاء لدعم أفكاره حول السكان، وقد تضمن كتابه " مقالة عن مبدأ السكان " الذي نشره عام 1798 أولى إسهاماته في هذا المجال، حيث أحدث قفزة مهمة في الدراسات السكانية، إضافة إلى إسهامات أخرى كثيرة منشورة أبرزها : " رسالة في الاقتصاد السياسي " عام 1803.

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

وقد تبلورت أفكار مالتوس من خلال مناقشاته مع والده حول المسألة السكانية، حيث كان والده يرى بأن البؤس الذي وصل إليه الناس هو جراء النظم الاجتماعية الفاسدة السائدة، أما الطبيعة فهي خيرة ومعطاءة، متأثراً في ذلك بأراء الفيلسوف الانجليزي **ويليام غودوين (1756-1836)**، في حين يرى مالتوس العكس وأن النظم الاجتماعية ليست هي السبب في البؤس والشقاء وأن الغريزة البشرية التي تطمح إلى التكاثر والنظم الطبيعية هما المسؤولان عن ذلك، فبالرغم من أنها متزايدان بصفة مطردة عبر الزمن إلا أن تزايدهما لا يكون بنفس المعدل؛ وهو السبب الرئيسي لانتشار الفقر في المجتمعات.

ويمكن تلخيص فحوى نظرية مالتوس في أن سكان العالم سيواجهون أزمات كبيرة في المستقبل نتيجة انتشار المجاعات لأن تزايدهم المستمر أكبر بكثير من قدرة الأرض على استيعاب احتياجاتهم، فالزيادة السكانية حسب رأيه تتم وفق متوالية (متتالية) هندسية كل 25 سنة، بينما الغذاء والموارد الطبيعية يتبعان متوالية حسابية أو عددية وذلك في نفس الفترة، إذ يوضح فكرته هذه كما يلي:

إذا فرضنا أن السكان الحاليين للأرض (في ذلك الوقت) يعادلون ألف مليون، فإن تزايدهم يكون حسب الأضعاف التالية: 1، 2، 4، 8، ...، بينما يزداد الغذاء كما يلي: 1، 2، 3، 4، ...، ومن ذلك فإنه يعبر عن نسبة السكان بالنسبة إلى الموارد خلال قرنين من الزمان بالكسر: $9/256$ ، وبعد ثلاث قرون بـ: $13/4096$ ، وهكذا... إضافة إلى ذلك فهو يرى بأن الموارد في مرحلة متقدمة من الزمن ستتناقص بالتدريج، لأن البيئة لها حد معين من العطاء، وهو ما سماه بـ: **تناقص الغلة**.

➤ **نقد النظرية:** ظلت نظرية مالتوس للسكان معتمدة لفترة طويلة بين الاقتصاديين في العالم، وقد أدت إلى كوارث إنسانية خطيرة، لأنها اتخذت مبرراً للإبادة الجماعية للعديد من الشعوب، كما أنها أجبرت بعض العرقيات المضطهدة كالسود والهنود الحمر على التعقيم القسري (من أجل تحديد النسل ونشر العقم بين الفقراء) وإن ظهر على أنه اختياري، حيث يشير **آلان تشيس** في كتابه "**تركة مالتوس**" أن **63678 شخص** قد تم تعقيمهم قسراً بين عامي: **1907-1964**، (وهناك من يرى بأنها امتدت من 1920-1970) في الولايات الثلاثين التي سنت فيها هذه القوانين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد لاقت أفكار مالتوس الكثير من الانتقادات، إلى درجة أنها سميت عند البعض بـ **خرافة مالتوس**، إومن بين الانتقادات الموجهة:

- قانون التكاثر الهندسي للسكان في كل زمان ومكان غير مطلق، وقد أثبتت التعدادات المختلفة للسكان خطأه وأن هناك عوامل كثيرة متحركة في الزيادة السكانية عبر الزمن والمكان.

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

- اعتبر تكاثر الجنس البشري عملية بيولوجية بحتة، وتغافل عن المتغيرات السوسيو ثقافية والسياسية والتاريخية والصحية وغيرها....
- اعتبر النشاط الزراعي المصدر الوحيد للغذاء، وأهمل العوامل الأخرى المباشرة وغير المباشرة، كالصناعات الغذائية، أو الصناعات التحويلية التي يمكن أن توفر لهذا النشاط الآلات والمعدات التي تدعم الإنتاج.
- أفكاره عن تزايد عمليات إنتاج الغذاء لا تستند إلى معطيات علمية دقيقة، حيث أثبتت الوقائع التاريخية بأن زيادة الإنتاج يمكن أن تتم وفق وتيرة متصاعدة أسرع من الزيادة السكانية إذا ما توفرت الظروف المناسبة لذلك.

(3) النظريات الطبيعية:

ظهر هذا الاتجاه بعد الإخفاق الكبير الذي صاحب نظرية مالتوس، إذ يرى رواد النظريات الطبيعية أن المتحكم الرئيسي في نمو السكان هو العوامل الطبيعية البحتة، سواء كانت متعلقة بطبيعة الإنسان ذاته، أو ببيئته الطبيعية المحيطة، وأنه وإن كان للإنسان سيطرة على هذه العوامل فهي سطحية ومحدودة الإطار، حيث حاول أصحاب هذا الاتجاه إيجاد قانون يمكن من خلاله معرفة وتفسير النمو السكاني في الماضي والحاضر والمستقبل، وقد كانت جل القوانين التي توصلوا إليها بعيدة كل البعد عن تأثير المتغيرات الاجتماعية والثقافية والإنسانية في هذا النمو، ومن ابرز الأفكار التي تضمنتها النظريات الطبيعية:

(1-3) نظرية دبلداي:

توماس دبلداي Thomas Doubleday (1790-1870) هو اقتصادي وفيلسوف اجتماعي انجليزي كانت له إسهامات كثيرة في الديمغرافيا، وقد حاول من خلال مؤلفه " القانون الحقيقي للسكان" المنشور عام 1837 أن يضع تفسيراً للعلاقة القائمة بين تزايد السكان و توفر الغذاء، وفي هذا أكد أن الغذاء يلعب دوراً مهماً في تناقص القدرة البيولوجية على الإنجاب، وأنهما يسيران بوتيرة عكسية، فكلما واجهت الإنسان ظروف صعبة على تحصيل الغذاء فإن الطبيعة تعترض هذا الخطر بزيادة قدرته البيولوجية على الإنجاب، بينما تنخفض هذه القدرة في الفترات التي يكون فيها الغذاء وفيراً.

فالفقير في رأيه يشجع على الخصوبة العالية للسكان والعكس صحيح، ويستدل في رأيه هذا بأن المجتمعات الفقيرة هي التي تكون فيها نسبة الخصوبة عالية وذلك مقارنة مع الفئات الغنية، كما أنه يؤكد

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

على هذه العلاقة حتى داخل المجتمع الواحد، وأن الطبقات الفقيرة في أي مجتمع يكون فيها التزايد السكاني مرتفع، ويكون معتدلاً وثابتاً عند الطبقات الوسطى، ويتناقص عند طبقة الأثرياء.

➤ **نقد النظرية:** من الانتقادات الموجهة لنظرية ديلداي أنه ربط النمو السكان بتوفر الغذاء كما ونوعاً وهذا في إطار علاقة عكسية، وأهمل بذلك العوامل الأخرى المتحركة في ذلك كعدم القدرة على الإنجاب، والمجاعات والحروب والأوبئة، وغيرها من المتغيرات التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على أعداد السكان وخصوبتهم وتوزيعهم وتركيبهم.

(2-3) نظرية سادلر:

مايكل توماس سادلر Michael Thomas Sadler (1835-1780) هو مصلح اجتماعي انجليزي ومن رجال الاقتصاد المعاصرين لمالتوس، وقد أبدى اهتماماً كبيراً بالمسألة السكانية وهو ما برز في كتابه " **قانون السكان** " المنشور عام 1830، ومن ضمن الأفكار التي أتى بها سادلر في هذا الكتاب هو أن التكاثر البشري عملية بيولوجية تتحكم في نفسها بنفسها، فإذا وصل مركز عمراني ما إلى درجة كبيرة من التضخم تدخلت العوامل البيولوجية لحمايته من النمو الزائد، وهو ما يتناقض مع أفكار مالتوس.

➤ **نقد النظرية:** تعرضت أفكار سادلر إلى العديد من الانتقادات أبرزها أنه لم يفرق بين القدرة على الإنجاب والنمو الفعلي للسكان، ففي حالة ازدياد الوفيات مثلاً نتيجة الحروب أو الأوبئة فإن عدد السكان سيتناقص حتى وإن كانت نسبة الوفيات مرتفعة، كما أنه أهمل بعض الحقائق الواقعية المعروفة في ذلك الوقت عن النمو السكاني، فالهنود والصينيون مثلاً كانوا أكثر الشعوب مقدرة على التناسل والزيادة بالرغم من عددهم الكبير.

(3-3) نظرية هربرت سبنسر:

هربرت سبنسر Herbert Spencer (1903-1820) هو فيلسوف ومفكر انجليزي، اشتهر بفكره الاجتماعي المرتكز على التفسير البيولوجي، وقد عرض أفكاره ضمن كتاب " **مبادئ البيولوجيا** " عام 1901، ومن أهم أفكاره:

- الغذاء الجيد يزيد من قدرة الإنسان على التناسل، لأنه يزيد من سعادة الفرد ورفاهيته واطمئنانه والذي ينعكس بدوره على معدلات التكاثر.

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

- هناك تعارض بين التناسل والنضج الذاتي للمخلوقات، حيث أكد أن المخلوقات كلما تطورت من أشكالها البدائية إلى مرحلة أكثر تطوراً تفقد الكثير من الخصائص المتعلقة بالخصوبة.
- الزيادة السكانية تقل بتطور المجتمعات وتعتقد، وذلك نتيجة الإجهاد الفكري والعضلي الذي يتعرض له الإنسان في المجتمعات الأكثر تطوراً، حيث لاحظ سبنسر قلة النسل لدى السيدات المشتغلات في المهن الفكرية وأرجعه إلى الإجهاد الذهني الذي يقلل من قدرتهن على الإنجاب.

➤ **نقد النظرية:** تعرض سبنسر إلى جملة من الانتقادات أبرزها أن الخصوبة المتناقصة لا يمكن إرجاعها للمتغيرات الفيزيولوجية فقط، بل هناك عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية أخرى متحركة فيها كالرغبة في تنظيم النسل وتحديد حجم الأسرة باستخدام آخر ما توصل إليه الإنسان من أساليب وتقنيات متطورة.

3-4) نظرية كورادو جيني:

كورادو جيني Corrado Gini (1884-1965) هو علم إحصاء ومفكر اجتماعي إيطالي، اهتم بدراسة التغير السكاني باعتباره مؤشراً على التغير في المجتمعات، وكانت له العديد من الإسهامات تضمنها كتابه **"أثر السكان في تطور المجتمع"** الصادر سنة 1912، حيث شبه جيني مراحل نمو السكان بدورة حياة الإنسان منذ ولادته إلى غاية وفاته، وقسمها إلى ثلاث مراحل رئيسية هي:

- **مرحلة النشأة والتكوين:** وفيها يتميز المجتمع بالتجانس والبساطة وعدم التعقيد وترتفع فيه معدلات الخصوبة الناجمة عن قدرة الإنسان الطبيعية على التناسل، ومع بداية السكان في التزايد يتعقد المجتمع ويبدأ الضغط على الموارد، ويظهر التفاوت الطبقي، فيصاحب ذلك اختلاف في السلوك الإنجابي.
- **مرحلة التقدم والازدهار:** يحدث فيها نقص في الخصوبة نتيجة عوامل عديدة كالارتفاع في معدلات الوفاة سيما بالنسبة للمواليد الجدد والأشخاص قبل سن الزواج، وكذا عدم القدرة على الإنجاب التي تكون لدى فئات معينة من المجتمع سيما الطبقات العليا، والتي تنتقل بالتدرج إلى الطبقات الأخرى إثر صعودها لملء الفراغ الذي أنتجه نقص المواليد في الطبقة الأعلى وهكذا...، وما يؤكد عليه جيني أن هذا العجز عن التناسل لا يكون بسبب الظروف التي تعيشها هؤلاء في مراكزهم الجديدة في المجتمع، وإنما بسبب الضعف الذي ينتاب غريزة التناسل والذي يعتبره مرحلة حتمية في دورة النمو السكاني. وفي هذه المرحلة يزيد الرفاه وترتفع مستويات المعيشة وتزدهر التجارة والفنون والموسيقى والأدب، ويشعر المجتمع بالسعادة والاطمئنان.

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

● **مرحلة الاضمحلال والوفاة:** في هذه المرحلة يتناقص عدد السكان في الريف تدريجياً بسبب تناقص معدلات الخصوبة، وكذا نتيجة نزوحهم إلى المناطق الحضرية بحثاً عن الرفاه، إضافة إلى توفر سبل الشغل نتيجة نمو التصنيع، ما يؤدي إلى إهمال الأراضي الزراعية، وتدهور الإنتاج الغذائي، وتردي الظروف الاقتصادية، وهنا تتسع الهوة بين الفئات الدنيا والعليا في المدن، فينشأ الصراع الطبقي الذي يقود المجتمع إلى الانهيار والزوال.

➤ **نقد النظرية:** تعرضت نظرية جيني إلى انتقادات واسعة أبرزها افتراضه لوجود قوة طبيعية تتحكم في قدرة الإنسان على الإنجاب مع تطور المجتمعات وتعقدها وهو افتراض غير منطقي ولا يستند إلى اعتبارات علمية، كما أنه استمد أفكاره من دراسته لتاريخ الشعوب القديمة أبرزها اليونان والرومان، وقام بتعميمها على جميع المجتمعات في الماضي والحاضر، في حين تؤكد الشواهد التاريخية أن السكان في حضارات أخرى كان تطورهم مختلفاً عما جاء به جيني، وتميزوا بدرجة عالية من الخصوبة رغم تعقد مجتمعاتهم كالصينيون القدامى مثلاً، إضافة إلى أنه ركز على العوامل الطبيعية في اضمحلال المجتمعات وهمل العوامل الأخرى كالحروب والأوبئة والمجاعات وغيرها....

خلاصة:

استند كل من مالتوس ورواد النظريات الطبيعية في تفسيرهم للظاهرة السكانية إلى اعتبارات متعددة منها ما هو متعلق بغريزة الإنجاب والتطور في الموارد، ومنها ما هو مرتبط بعوامل طبيعية بحتة خارجة عن إرادة الإنسان، وأهملوا بذلك المتغيرات الاقتصادية والنظم الاجتماعية والعوامل التاريخية والسياسية والصحية وغيرها...، ما جعل أفكارهم عرضة للانتقاد في الوسط العلمي، وأسس لظهور آراء أخرى في الفكر السكاني.

المراجع:

1. تيسير، محمد. (2023/06/19). تعريف النظرية وأهميتها في البحث العلمي، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/03/01، على الرابط: <https://blog.ajsrp.com>>...
2. الجامعة المستنصرية. (د ت). هربرت سبنسر، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/02/29، على الرابط: <https://uomustansiriyah.edu.iq><...
3. جامعة حماة. (د ت). النظريات السكانية، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/02/29، على الرابط: <https://hama-univ.edu.sy>>...

المحور الثالث	النظريات السكانية
المحاضرة السادسة	نظرية مالتوس والنظريات الطبيعية

4. خزايلة، صهيب. (2019/01/03). ما هي النظرية. موقع موضوع، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/03/01، على الرابط: <https://mawdoo.co3.com>
5. خفاف، عبد علي. (2001). جغرافية السكان: دراسة في أدب السكان وديموغرافية الوطن العربي. الأردن: دار الكندي للنشر والتوزيع
6. د ن. (on line). النظريات السكانية عند مالتوس. المنصة البيداغوجية لجامعة سطيف 2 تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/02/29، على الرابط: <https://cte.univ-setif 2.dz>view>
7. صبرة، محمود. (2018). مصر وتحديات استيراد المياه: السبع العجاف. القاهرة: مكتب جزيرة الورد
8. عزم، أحمد جميل. (2023). القدس: التطهير العرقي وأساليب المقاومة. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
9. فضلي، عبد الهادي. (2014). الإسلام والتعدد الحضاري بين سبل الحوار وأخلاقيات التعايش. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
10. كرادشة، منير عبد الله. (2009). علم السكان الديمغرافيا الاجتماعية. الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.